الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

الأدب بين عالمية القيّم الإنسانية و خصوصية القيّم الجمالية
(قراءة لمفهوم الأدب في الوعي النقدي العربي القديم)

Literature between Universal Human Values and Aesthetic Private Values.
(Reading of the Concept of Literature in Ancient Arabic Critical Awareness)

د. محمد زيوش ،كلية الآداب واللغات
جامعة حسيبة بن بوعلي -الشلف-
ziou_moha@yahoo.fr

ملخص

تسعى هذه المقالة الموسوم: الأدب بين عالمية القيّم الإنسانية وخصوصية القيّم الجمالية (قراءة لمفهوم الأدب في الوعي النقدي العربي القديم) إلى تقديم مفهوم الأدب في الوعي النقدي العربي القديم وهو ينظر للشعرية العربية، لأنّ تحديد مفهوم الأدب، أصبح عملية صعبة، في الدراسات النقدية، والأدبية المعاصرة على الخصوص؛ بسبب تنوع التعريفات، نتيجة الخلخلة التي تعرضت لها المفاهيم القديمة جراء غزو مفاهيم المدارس الجديدة الساحة النقدية، فكان أن أدى هذا الفعل إلى ظهور رؤى متذبذبة، مختلفة، تنظر إلى الأدب من زوايا متعددة، وعلى الرغم من هذا التعدد فجميعها التقت عند نقطة مركزية واحدة، في تحديد مفهوم الأدب، ألا وهي اللغة، خاصة عند المدارس التي ركزت على الخصائص الفنية، فالأدب عندها هو " الأعمال المدونة-المكتوبة التي لها قيمة فنية" بفضل الاستعمال الخاص للغة الذي يحقق "وظيفة جمالية"، ويغدو الأدب بهذا الفهم "عُنْفا منظما يرتكب بحق الكلام الاعتيادي." غير إنّ النقاد العرب القدامى في سعيهم لتحديد المقاييس الجمالية للشعرية العربية انطلاقا من مكانة النص ودوره في الثقافة العربية، و أدركوا أنّ الغاية التي تهفو الكلمة إلى بلوغها ليست الإمتاع فقط، لأنّ الوظيفة المحورية للكلام في نظرهم غير منشدّة لذاتها، بل هافية إلى بلوغ غاية نفعية اجتماعية، وتتحدد وظيفة الأدب عند النقاد العرب القدامى فيما يمتلكه من قدرة إجرائية، تسهم في تغيير الإنسان، وتغيير رؤيته للعالم، فيكون فعل الأدب، تغيير الإنسان نحو الأفضل، والارتقاء به إلى الكمال، أليس الشعر في أحد جوانبه هو مدح الخصال الممدوحة؛ قصد تثبيتها، والحثّ عليها، وذمّ للخصال المذمومة، حتى غدا الأدب مرسّخ للفضائل التي يمتاز بها الإنسان عن سائر الحيوان، وهي العقل، والشجاعة، والعدل، والعفّة. فتتجلى وظيفة الأدب من زاوية فعله أولا، ثم من زاوية إلذاذه ثانيا، فيصبح الأدب هوالتّعبير الفنّيالهادف عن الحياة والكون والإنسان.

الكلمات الدالة: مفهوم الأدب، عالمية القيّم الإنسانية، خصوصية القيم الجمالية، التراث النقدي العربي.

Abstract

This article aims at introducing the meaning of literature in the old Arabic critical consciousness by putting special emphasis on Arabic poetics because literature is hard to be defined in modern critical and literary studies. A fact which is due mainly to the diversity of definitions ever since the old meanings and concepts have been shaken by the new understanding brought by the new schools of criticism, and thus, literature started to be perceived as an ambiguous concept with multiple meanings.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

All these perspective converge within one point, which is language, especially in relation to those schools that concentrated on the artistic aspects. For these schools literature is the recorded works (written) that have an artistic value through the special use of language which achieves an aesthetic function. This understanding exercises a form of organised violence against natural speech. In their efforts to determine the aesthetic measures and standards of Arabic poetry starting from the role of the text in Arabic culture, the old Arab critics became conscious that entertainment is not the only function of the word because the primary function of the word is not an aim in itself. It rather aims at achieving a utilitarian and social function. The function of literature is determined, according to the old Arab critics, by its power to transform humanity together and how it sees the world. Therefore, the action of literature will contribute to the improvement of the human being and pushes him towards perfection isn't in the nature of poetry to praise virtues for the purpose of fixing it as a social standard and to curse reprehensible qualities. Literature, thus, becomes a tool of consolidating mental virtues, courage, justice and chastity that distinguishes the human being from animals. Literature manifests itself firstly from the very perspective of its action and then from its potential to evoke taste. Literature becomes that meaningful artistic expression of life, the universe and the human being.

Key Words: *Universal human Values;Aesthetic Private Values.*

مقدمة

تعد عملية تحديد المفاهيم، من أصعب المهام، التي يواجهها الباحث، خاصة المختصين في الدراسات الأدبية، لأنها المكونات الأكثر تجريدا، والداخلة في تأسيس أي منهج نقدي، ولأنها كذلك، فهي متصفة بالنسبية، الناتجة عن تعرّضها للتغيرات الدلالية، بتغير الظروف الزمنية والمكانية، ومن هنا كان تحديدها مرهقا للباحث، الذي عبثا يحاول تحديدها، ومقاربتها. (1)

ومن بين المفاهيم الأساسية، التي تعترض الناقد الأدبي، مفهوم الأدب، والواقع أن تحديد مفهوم الأدب، أصبح عملية صعبة، في الدراسات النقدية، والأدبية المعاصرة على الخصوص؛ بسبب تنوع التعريفات، نتيجة الخلخلة التي تعرضت لها المفاهيم القديمة جراء غزو مفاهيم المدارس الجديدة الساحة النقدية، فكان أن أدى هذا الفعل إلى ظهور رؤى متذبذبة، مختلفة، تنظر إلى الأدب من زوايا متعددة، وعلى الرغم من هذا التعدد فجميعها إلتقت عند نقطة مركزية واحدة، في تحديد مفهوم الأدب، ألا وهي اللغة، التي احتلت حيزا كبيرا في تعيين المفاهيم، خاصة عند المدارس التي ركزت على الخصائص الفنية، فالأدب عندها هو " الأعمال المدونة-المكتوبة التي لها قيمة فنية" (2) بفضل الإستعمال الخاص للغة(3) الذي يحقق "وظيفة جمالية"(4) ، ويغدو الأدب بهذا الفهم "عُنفا منظما يرتكب بحق الكلام الاعتيادي." (5) ولقد إنساق بعض نقادنا المعاصرين نتيجة إنبهارهم بالمدارس الغربية أثناء تقديمهم مقاربة للأدب قصد ضبط مفهومه، فكانت مقارباتهم -على قلّتها- تقدّم تصوراتهم للأدب، تتجاذبها تصورات نقادنا القدماء من جهة، ومفاهيم الغربيين حول الأدب حديثا، من جهة أخرى، وفي غالب الأحيان، وكان نتيجة هذا التجاذب، أن ضُيِّقَ مفهوم الأدب، حتى صار مرادفا للفظة(littérature)، فجاء منحصرا في قيمته اللغوية، مهملا للقيم الخارجية. (6) فالأدب بهذا الفهم هو:"... أداة تعبيرية من نوع خاص تتحقق فيها إمكانيات الموسيقى من جهة، كما أنّه يتبع في تكوينه نظاما تشكيليا خاصا بها." (7) و بهذا التحديد لمفهوم الأدب يصبح النص الأدبي هو النص الذي يستطيع أن " يثير فينا بفضل خصائص صياغته إحساسات جمالية أو انفعالات شعورية أو هما معا " (8)، أما في ترتثنا العربي الإسلامي فإنّ مفهوم الأدب عرف تحوّلات عدّة، فدلالة لفظة "الأدب" تعرضت إلى التغيير، وتطورت عبر الزمن، وانتقلت من العموم إلى الخصوص، فخصّت حقول المعرفة، والدّرس الجمالي الفني، حسب تنامي، حركة المجتمع العربي وتضاؤلها، وبحسب تطورات هذا المجتمع، وتحولاته، فإن كان المعنى الأول: "يشكل محتوى أخلاقيا وعرقيا فالأدب أتى ليغني الخاصية العليا للنفس، والتنشئة الحسنة، والتهذيب واللّطف، في استحسان متطابق لصقل الأعراف القبلية، والأخلاق نتيجة الإسلام." (9)

وقد ظهرت في القرن الأول الهجري، طبقة من العلماء، وظيفتها تربية أبناء الخلفاء، والأمراء، والميسورين خاصة، أطلق عليها اسم "المؤدبين"، وكان نتيجة هذا الفعل، أن أخد مفهوم الأدب بعدا معرفيا، وثقافيا، وارتبط بالعلم كموضوع، فاستحدث مصطلح جديد هو "علم الأدب"، قال عُتبة بن أبي سفيان لعبد الصمد مُؤدِّب ولده: "ليكن أوّل ما تبدأ به من إصلاحك بَنيَّ إصلاحك نفسك، فإنَّ أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهَم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روّهم من الشعر أَعَفَّهُ، ومن الحديث أشرفه، ولا تُخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإنَّ ازدحام الكلام في السمع مَضَلّة للفهم، وعلِّمهم سِيَرَ الحُكماء، وأخلاق الأدباء." (10)

يتضح من كلام عتبة بن أبي سفيان، أن الأدب بدأ يأخذ دلالته الاصطلاحية كعلم مستقل، عن باقي العلوم الأخرى، أي أن حركة علمنة الأدب كانت موجودة في عصر عتبة، لكنها حركة غير منفصلة عن الثقافة الدينية، وفي نفس الوقت غير منحصرة فيها، بل سعت إلى علمنة الأدب، كمحور مستقل من محاور المعرفة، والثقافة، له تقاليده، ومحاوره التي هي بدورها عرضة للتغيير، بفعل الزمان، وثقافة المجتمع، الذين يفعلان فعلهما في المتقبل، إلى جانب التحول، الذي يطرأ على الخطاب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأدبي نفسه.

ويبدو أن انحصار لفظة الأدب، على الشعر والنثر، وعلوم اللغة، كان في نهاية القرن الأول الهجري، ولعل أوّل من أطلق مصطلح علم الأدب، كان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس(ت.125هـ)، إذ قال فيه: "كفاك من علم الدّين أن تعرف ما لا يسع جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل"[(11)]، ويتأكد من هذا النص، استخدام مصطلح الأدب، منذ القرن الأول للهجرة، فدلّ على علم، من بين موضوعاته رواية الشواهد المختلفة: من كلام العرب، والقرآن الكريم، والحديث الشريف، وبذلك، فإن الأدب كمصطلح لعلم مستقل، كان راسخا في أذهان العلماء، منذ بداية العهد الإسلامي.

وفي الوقت ذاته يشهد التاريخ، بوجود حركة علمية، حاولت الانتقال بالأدب من الرواية، والاستشهاد بنصوصه، في إطار ثقافة العامة، إلى الدراسة المتخصصة، ذات المحاور المستقلة، وهذا ما يظهر في بيتين نسبا إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذين يقول فيهما:

"مازِدْتُ في أَدبي حَرْفًا أُسَرُّ به ❖ إلاّ تَزَيّدْتُ حُرْفاً تحته شُومُ
إنَّ المُقدَّمَ في حِذقٍ بصَنْعَتِه❖ أنّى توجَّهَ فيها فهو مَحْرومُ." [(12)]

وما يشدنا إلى هذه الأبيات، هو ثلاث كلمات مفتاحية، تسجل لنا انتقال مفهوم الأدب إلى الخصوصية العلمية، وهي: الأدب، الصنعة، التوجه، وبالتالي فإن الأدب عند الخليل كما يبدو، هو صنعة بالحرف، ناتجة عن توجه الأديب، وفكره، وهذا يقودنا إلى القول، أن الأدب ترسّخ مفهومه، على أنه صناعة فنية، تستوجب الإجادة، والبراعة، والحذق، باللغة، إذن الأدب كمفهوم يسمو بمستوى اللغة، عن الاستعمال العادي، إلى الاستعمال الوظيفي(الجمالي)، الذي يدخل الغبطة، والأريحية في النفس المبدعة، ثم ينقلهما إلى النفس المتلقية، أي أن الحكم بالقيمة الجمالية، أصبح مقرونا بمفهوم الأدب، منذ العهود الإسلامية الأولى، وأضاف ابن المقفع مفهوما جديدا على الأدب؛ إذ قال: " ... وللعقول سجيات وغرائز بها تَقبل الأدب، وبالأدب تَنْمى العقول وتزكو... وجُل الأدب بالمنطق، وجُل المنطق بالتعلم"[(13)]، وابن المقفع بهذا النص، يعتبر الأدب حلقة وصل، بين التحصيل، والتفكير، فيسمو كلما اقترب من منطق الوجود، والأشياء، فيكون بهذا وسيلة هامة، في تنمية عقول متلقيه، الذين يستحسنونه، اعتمادا على عقولهم، ومشاعرهم.

لكن مع الجاحظ، الذي يبدو أنه استوعب حركة تطور المفهوم، يمكن الحديث عن بداية تحديد شامل للأدب، وصلاته المتشعبة مع العلوم الأخرى بصفة عامة، ومع الثقافة بصفة خاصة؛ إذ أنه وبعد إقراره، بأن الأدب هو صناعة فنية، يرى بأن: "الإنسان بالتعلم والتكلف، وبطول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء يجُودُ لفظة، ويحسن أدبه"[(14)]، فيشير الجاحظ في هذا النص إلى عملية التنقيح عند شعراء الحوليات[(15)]، ويبدو واعيا تمام الوعي، بماهية الأدب، الذي إضافة إلى ارتباطه بجودة اللفظ، وبعد اللغة الجمالي، فهو لا يستغني عن الفكرة، والمعنى؛ إذ يحسن، بحسن التأمل، ونفاذ البصيرة بعد طول مراس بدروب الحكمة، ومخالطة العلماء، والجاحظ بذلك، يجعل للخطاب الأدبي خصائص فكرية، يتقاطع فيه ما هو فني بما هو إيديولوجي، لأنه: "عقل غيرك تزيده في عقلك[(16)]، كما إنه: "دَليل على المُروءة، وزيادة في العقل، وصاحبٌ في الغربة، وصِلة في المَجْلس"[(17)]، ولا تخلو هذه المفاهيم، من تحديد لجوهر الأدب، الجامع بين المتعة، والفائدة.

لقد أدركت العرب في وقت مبكر من تاريخها الطويل أنّ للأدب ممثلا بفنّ الشعر كأسمى الفنون الأدبية البشرية فاعلية، أكثر من الفِعْل ذاته؛ لأنّ الشعر اللطيف المعنى يسلّ السّخائم، ويحلّل العُقد، وَيسخّى الشَّحيح، ويشجِّع الجَبان[(18)]، ويؤكد الجاحظ نفسه، بأن الكلام هو أخطر فعل مارسه الإنسان على الإطلاق، وعبّر عن هذا الفعل الخطير بـ (فتنة القول) [(19)]، والتي استعاذ بالله منها.

وستحدّد الشعرية العربية في ظل هذا الفهم، مقاييسها الجمالية، انطلاقا من مكانة النص، بما في ذلك النص القرآني نفسه، ودوره في الثقافة العربية، فالجاحظ أشار إلى أن وظيفة الكلام الأساسية هي الفهم، والإفهام، والإفصاح، والإبانة، وأن هذه الأهداف، هي الغاية التي تهفو الكلمة إلى بلوغها، غير أن الكلام، قد يهفو إلى غاية الإمتاع[(20)]، وهذا لا يعني أبدا أنّ الوظيفة المحورية للكلام في نظر الجاحظ، غير منشدّة لذاتها، لكن غير مكتفية بذاتها، بل هافية إلى بلوغ غاية نفعية اجتماعية، لأن الهدف من الكلام هو توصيل المعاني: "التي إذا صارت في الصدور عَمرتها وأصلحتها من الفَساد القديم"[(21)]، فـ: "الكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه." [(22)]، وهو نفس الكلام الذي يذهب إليه تودوروف حين يؤكد أنّ" الأدب يستطيع الكثير. يستطيع أن يمدّ لنا اليد حين نكون في أعماق الاكتئاب، ويقودنا نحو الكائنات البشرية الأخرى من حولنا، ويجعلنا أفضل فهمًا للعالم، ويعيننا على أن نحيا.[و]يستطيع أيضا...أن يحوّل كلّ واحد منّا من الدّاخل"[(23)]

وتتحدد وظيفة الشعر عند النقاد العرب القدامى، وفق ما سبق، فيما يمتلكه من قدرة إجرائية، تسهم في تغيير الإنسان، وتغيير رؤيته للعالم، لأن الشعر: " كان أنفذ من نَفْثِ السحر. وأخفى دبيباً من الرُّقى"[(24)]، هكذا يكون فعل الشعر، تغيير الإنسان نحو الأفضل، والارتقاء به إلى الكمال، أليس الشعر في أحد جوانبه هو مدح الخصال المدوحة؛ قصد تثبيتها، والحثّ عليها، وذمّ للخصال المذمومة؛ قصد الردع منها[(25)]، فالشعر في نظر النقاد، وهم يؤسسون للشعرية العربية مرسّخ للفضائل التي يمتاز بها الإنسان عن سائر الحيوان، وهي العقل، والشجاعة، والعدل، والعفّة،[(26)] ولكل فضيلة خصال تشتمل عليها: "فمن أقسام العقل: ثقافة المعرفة والحياء، والبيان والسياسة، والكفاية، والصدع بالحجة والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة... ومن أقسام الشجاعة الحماية والدفاع والأخذ بالثأر... ومن أقسام العدل السماحة وقرى الأضياف وما جانس ذلك." [(27)]

بهذا التحديد، تتجلى وظيفة الشعر من زاوية فعله أولا، ثم من زاوية إلذاذه ثانيا، وهو بالنسبة للعرب، مثلما قال ابن سلام: "هو ديوان علمهم ومنتهى حُكمهم"[(28)]، أو كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه: "علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه"[(29)]، وهو: "يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأنساب"[30]، وهذا الوعي بالأبعاد المعرفية لوظيفة الشعر، التي تسهم بشكل إيجابي في غرس الثقافة العربية لدى المتلقين، وهو المسعى ذاته، الذي هدف الشعر إلى تكريسه عبر حقبه المتتالية؛ إذ انبنى في جوهره على تصوير ما في طبائع العرب وأنفاسها من محمود الأخلاق، ومذمومها.[31]

ولعل جابر عصفور، لم يصب في حكمه على قدامة، بأنه نقل الفضائل الأربع المذكورة سابقا عن أرسطو[32]، ذاك أن قدامة قد عدّد جملة من الخصال العربية، والقيم الشائعة في المجتمع العربي، كالأخذ بالثأر، وقرى الضيف، والشجاعة، وما إلى ذلك، وهي قيم عرفها المجتمع العربي، وحثّ عليها شعرهم، حتى أصبح هذا الشعر، يمثل لحظة من لحظات تجلي النظام المعرفي البياني، وهو يعلن عن نفسه متلبسا بالقصيدة، مداخلا للرؤية التي أنشأته؛ لهذا السبب نجد أغلب شعريينا يلحون على أن القيم التي تجعل الشعر عندهم جيّدا، هي قيمٌ عمل الشعر العربي من قبلُ على ترسيخها في نفوس الناس، حتى أضحت قوانينا، ساهم القرآن في تزكيتها، وتثبيت قيمها الإيجابية، حينما رغّب في الفضيلة، ونفّر من الرذيلة، فكانت الكلمة الطيبة، وكانت الكلمة الخبيثة...[33] هكذا كرّس القرآن النظرة البيانية للكلام، من خلال تحديد وظيفته اجتماعيا، وهو الكتاب العربي المبين، والمعجز الساحر، الذي جاء متماشيا مع طريقة العرب في تصريف الكلام، وحضورهم في العالم.

هكذا سينظر الناقد العربي إلى الأدب، وهو يحاول استخلاص مقاييسه الشعرية، حيث تلازم النافع بالجميل كتلازم الوجه بالقفا، غير أن مفهوم النفع سيعرف تغييرا، واستقلالا عن دلالاته الدينية، ابتداء من العصر العباسي الأوّل، إذ شهد المجتمع حركة تفاعل ثرية، بين مختلف عناصره البشرية، والثقافية، والحضارية، والسياسية، عكس العصر الأموي، الذي ظل فيه كل شيء عربيا، بما في ذلك الثقافة، وعليه ستتحدد علاقات جديدة بين الشاعر، وعالميه: الداخلي والخارجي، ومن ثم علاقة الشعري بالكلام الأدبي، ويتحدد الأدب في ضوء هذا الفهم على أنه نفع شامل بالمعنى الاجتماعي، وتبعا له يصبح الأدب فعالية بشرية مهمتها بلورة القيم البشرية، أليس الأدب كما قال الجاحظ: "عقل غيرك تزيده في عقلك"[34]، خاصة وأن الانفتاح الحضاري قد اقترن ميلاده بواقع الحياة العباسية، ألم يلاحظ تودوروف – الذي أمضى أكثر من ثلاثين سنة في دراسة الأدب لذاته منطلقا من أطروحة ذات تاريخ طويل في الفكر الغربي مضمونها أنّ الأدب لا علاقة تربطه بالعالم، وبالتّالي فالحكم عليه لا يجب أن يأخذ في الحسبان ما يقوله لنا عن العالم – إنّ الإنسان يقرأ الأدب"لا ليُتقِنَ بشكل أفضل منهاجاً للقراءة، ولا ليستمدّ منها معلومات عن المجتمع الذي أُبدعت فيه، بل ليجد فيها معنى يتيح له فهمًا أفضل للإنسان والعالم، وليكتشف جمالاً يُثري وجوده"[35]

ويعد بشار بن برد، واحدا من الذين فعل فيهم الفعل الحضاري فعله، فمنحه نوعا من الثراء، والغنى الفكري، نستشف ذلك من كلامه حين سئل مرةً: "بمَ فقتَ أهل عمرك، وسبقت أهل عصرك في حسن معاني الشعر، وتهذيب ألفاظه؟ فقال: لأني لم أقل كل ما تورده علي قريحتي، ويناجيني به طبعي، ويبعثه فكري، ونظرت إلى مغارس الفطن، ومعادن الحقائق، ولطائف التشبيهات، فسرتُ إليها بفهم جيد، وغريزة قوية، فأحكمت سيرها، وانتقيت حرها، وكشفت عن حقائقها، واحترزت من متكلفها، ولا والله ما ملك قيادي قط الإعجاب بشيء مما آتى به."[36]

إن العملية الشعرية بذلك، عملية مُحْكَمَةُ الصنعة، وليست عملية تلقائية؛ إذ يخضعها الشاعر إلى جميع طاقاته، من فهم جيد، وغريزة قوية، وإحكام متقن، واختيار سديد، وتحكيك متكرّر، وفي نفس الوقت يحذر الشاعر من التكلف، لأنه مرذول عند خاصة الناس، وعامتهم، فالشعر الجيد: "أنفذ من نفث السحر"[37]، وله فاعلية كفاعلية: "الخمر في لطف دبيبه وإلهائه، وهزّه وإثارته."[38] وفاعلية أخرى كفاعلية: "الغيث في التُّربة الكريمة"[39]، وإن: "للأشعار الحسنة على اختلافها مواقع لطيفة عند الفهم لا تحدّ كيفيتها كمواقع الطعوم المركبة الخفيّة التّركيب اللذيذة المذاق، وكالأراييح الفائحة المختلفة الطيب والنسيم."[40]

وإذا كانت جوليا كريستيفا قد ثارت على اجتماعية الأدب، واستنتجت أنّ الممارسة النصية، تتخطى الممارسة الاجتماعية وتتعارض معها، معتبرة النص الأدبي خطابا: "يخترق حالياً وجه العلم والإيديولوجيا والسياسة ويتطلع لمواجهتها وفتحها وإعادة صهرها"[41]، وهو بهذا الفعل: "ينفلت من قبضة الموضوع الأدبي الذي تطالب به كل من النزعة السوسيولوجية الفجّة والنزعة الجمالية"[42]، فإنّ ناقدنا العربي القديم، ابن طباطبا، نادى بصدق التجربة الشعورية، وذلك حينما ربط بين حسن الصورة الشعرية، وفعاليتها، وقدرتها على تحريك نشاط السامعين، وبين كونها صادرة عن تجربة شعورية صادقة، فجاءت الصورة أمينة ناقلة لتلك التجربة معبرة عنها يقول ابن طباطبا: "ولحسن الشعر وقبول الفهم إياه علة أخرى، وهي موافقته للحال التي يُعَدُّ معناه لها... فإذا وافقت هذه المعاني هذه الحالات تضاعف حسن موقعها عند مستمعها، ولا سيَّما إذا أُيِّدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النَّفس بكشف المعاني المختلجة فيها، والتصريح بما يُكتم منها، والاعتراف بالحق في جميعها"[43]، لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما خرج من القلب وقع في القلب، وما خرج من اللسان لم يتعد الآذان."[44]

واعتبر النقاد القدامى أنّ شعرية الشعر تكمن في أحد جوانبها، لما يستطيع هذا الشعر أن يصل القلب دون حجاب، أليس أفضل الشعر: "ما لم يحجبه عن القلب شيء" وإنّ: "أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه"[45]، ولا يتحقق هذا إلاّ متى استطاعت الصورة الشعرية التّمكن من النفس المتلقية، لمّا يجمع الخطاب بين اللّذة، والإثارة حين تركيزه على الوظيفة الإفهامية، حيث البعد الدلالي، يؤدي أخطر الأدوار في شعرنة الكلام، ويعمل على استقطاب سماع المتلقي، الذي تتمكن منه التجربة الشعورية، التي أراد الشاعر نقلها، ولا تكون كذلك، إلا إذا صدرت عن تجربة شعورية صادقة، تكشف فيها الخبايا[46]، ويصبح الشعر عظيما في نظر نقادنا القدامى كلما تنازل عن الفردي، لصالح الإنساني؛ حيث التجربة المنقولة تجربة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفردي مرشحة بخصائصه الإنسانية الشاملة[47]؛ فالمحسن من الشعراء: "هو الذي يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذي وجد حاضر أو داثر أنه يجد أو قد وجد مثله، حتى يكون للشاعر فضيلة الشعر." [48]

وإذا كانت الشعرية العربية، قد حرّرت الشاعر من القيود الاجتماعية، والدينية في جانب المضمون، بحسب فهمهم للحرية، فإنّ الالتزام بأوامر العقيدة ليس نقيض حرية التعبير عندهم، وأنّ التعارض بين البنيتين الدينية، والشعرية(الأدبية) ليس تعارضا في المبدأ، وإنما هو تعارض في حدود الاختصاص، والإبداع، ولا تخرج التجربة الشعورية الصادقة صاحبها عن ملّته، إلاّ إذا كان هناك خلل في تركيبة الشاعر، الُخلقية والخِلقية، وهو ما لَمّح إليه القاضي الجرجاني حين حديثه عن جمالية النصوص، وارتباطها بالبنية الخُلقية والخِلقية للإنسان لأنّ: "سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة، وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك، وترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ معقّد الكلام والخطاب." [49]

ومن هنا كان مفهوم الأدب في الوعي النقدي العربي متجاوزا لمفاهيم الأدب التقليدية والحداثية، بل كان مفهوما شامل الرؤية النابعة أصلا من الرؤية الإسلامية للإنسان والكون، والتي كانت للحظة الزمكانية للإنسان والأشياء لترتقي إلى كلّ ما هو إنساني، إلى كلّ ما هو متطوّر، إلى كلّ إبداع متجدد الأشكال، ثابت الجوهر، لذا كان مفهوم الأدب في وعي نقادنا القدمى وعيا إسلاميا، إنسانيا، جماليا " أرحب من المذاهب وأرسى من القيود"[50]. بخلاف المدارس الأدبية الغربية، وعلى تشعّبها كانت تنطلق من فكر أغسطينوس الاهوتي المتعلق بالاستعمال والتنعّم حيث الهدف من الأدب غدا إبداع الجمال الذي لا يُفضي إلى شيء يتجاوز ذاته، وليس محاكاة الطبيعة أو الإفادة والإمتاع[51]، وعليه يمكن القول إنّ الأدب في وعي نقادنا القدامى هو" التّعبير الفنّي الهادف عن الحياة والكون والإنسان وفق الكتاب والسنّة." [52]

ينظر: محمد الدَّغمُوميّ، نقد النقد، وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح، الدار البيضاء،ط1، 1999.خاصة الفصل التاسع.

1- Rundel ,michael ,Longman dictionary of contemporary english ,p .639.

2- تزفيتان تودوروف، مفهوم الأدب، تر. منذر عياشي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط.1، 1990، ص.47.

3- لوتمان، يوري، مفهوم الأدب (محتواه وبنيته)، "مقال"، ضمن كتاب: مجموعة من المؤلفين، نظرية الأدب في القرن العشرين، تر. عيسى العاكوب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط.1، 1996، ص.188.

4- إيغلتون تيري، نظرية الأدب، تر. ثائر ديب، وزارة الثقافة، دمشق، ط.1، 1995، ص.11.

5- عبد المنعم الحنفي، المعجم الفلسفي، الدار الشرقية، القاهرة، ط.1، 1990، ص.14.

6-:المرجع نفسه، ص.23.

7- محمد مندور، الأدب وفنونه، دار النهضة، القاهرة، ط.2، د.ت، ص.4.

-8- STERN.S.M. THE ENCYCLOPEDIA OF ISLAM. ADAB.

9- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.7، 1998، ج. 2، ص. 73.

10- المصدر السابق، ج.1، ص.86.

11- الثعالبي، أبو منصور: - تحسين القبيح وتقبيح الحسن، تح. شاكر العاشور، بيروت، 1981، ص.80.

12- - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص.657.

13- ابن المقفع، عبد الله، الأدب الصغير والأدب الكبير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص.12.

14- الجاحظ، البيان والتبيين، ج.1، ص.86.

15- المصدر نفسه، ج. 2، ص. 12

16- الجاحظ، المعاش والمعاد "رسائل"، تح. محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 2000، مج.1، ص.72.

17- الجاحظ، البيان والتبيين، ج.1، ص.352.

18- ابن طباطبا، عيار الشعر،تح: عبد العزيز بن ناصر المانع، الرياض- 1985- ص.23، 203.

19-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج.1، ص.2.

20- المصدر نفسه،ج1، ص.145.

21-المصدر نفسه، ج.4، ص.24.

22-ابن طباطبا، عيار الشعر، ص.7

23- تزفيطان طودوروف، الأدبفي خطر،تر:عبد الكبير الشرقاوي،دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،ط2007،1،ص:45

24- المصدر نفسه، ص.23.

25-المصدر نفسه، ص.17، 18، 19.

26- قدامة بن جعفر، نقد الشعر،تح: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية،بيروت.د.ت. ص.96.

27-المصدر نفسه، ص.98.

28-ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء،تح:أبو فهر محمود شاكر،دار المدني، جدة.د.ت. ج.1، ص.24.

29- المصدر نفسه، ج.1، ص.24.

30-ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،تح: عبد الواحد شعلان النبوي،دار الثقافة ، بيروت،ط-2 -1983 ج.1، ص.24 .

31-ابن طباطبا، عيار الشعر، ص- ص.17-18.

32- جابر عصفور، مفهوم الشعر(دراسة في التراث النقدي)، المركز العربي للثقافة والعلوم، 1982، ص.13.

33- سورة إبراهيم، الآية: 24.

34- الجاحظ: المعاش و المعاد- ضمن رسائل الجاحظ- تح: محمد باسل عيون السود،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1—2000مج1،ص:72.

35- تزفيطان طودوروف، الأدب في خطر،ص:15.

36- الحُصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياءالكتب العربية، بيروت،ط1، 1953. ج.1، ص. 110.

37-ابن طباطبا، عيار الشعر، ص. 23.

38-المصدر نفسه، ص.23.

39-الجاحظ، البيان والتبيين، ج.1، ص.83.

40- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ص.22.

41- جوليا كريستيفا، علم النص، جوليا كريستيفا: علم النص، تر: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 1997، ص. 13.

42- المرجع نفسه، ص. 14.

43-ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ص- ص.23-24.

44-المصدر نفسه، ص.22.

45- ابن قتيبة، الشعر والشعراء،تح:مفيد قميحة ومحمد أمين الضناوي،دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 -2005- ص.24. وكذا: ابن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رشيق القيرواني، العمدة، ج.1، ص.136.

46-ابن طباطبا، عيار الشعر، ص- ص.23-24.

47- يقول محمد حماسة عبد اللطيف: "وأصبح اهتمامه [الشاعر العباسي] الأول هو الفن، الشعر ذاته من حيث هو فن يجذب إليه المتلقي بما يثيره فيه من أشواق إنسانية عالية، وبأساليب شعرية تفجر قضايا حيوية تتجاوز المكان والزمان المحدودين، وتتصل بالنماذج العليا متخذة من الواقع المحدود نقطة تفجير شعري" أنطر: اللغة وبناء الشعر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط.1، 2001، ص.113.

48- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص.136.

49- القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه،تح:أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي منشورات المكتبة العصرية، بيروت،د.ت. ص.17.

50- نجيب الكيلاني : الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص 47

51- ينظر: تزفيطان طودوروف، الأدب في خطر، ص:25.

52- تعريف رابطة الأدب الإسلامي لمفهوم الأدب الإسلامي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com